

قراءة في مجموعة « المنعطف » لأحمد عودة

بقلم: فخري صالح

لقراءة النص القصصي عند أحمد عودة في مجموعته القصصية « المنعطف » سوف نخلله إلى ثلاث دلالات متقاطعة هي بنية النص أو بمثابة ثلاث قراءات داخل بنية النص.. إنها محاولة للتحليل ضمن أكثر من قراءة للنص الواحد بوصفه امكانية مفتوحة لقراءات متعددة، تتداخل فيما بينها لتشكيل امكانيات قابلة لتفسير ضمن أكثر من منظور وأكثر من تفسير يضيء البنية ويوضح تعدد جوانبها.

سوف نقرأ بعضاً من قصص هذه المجموعة ثلاث قراءات: القراءة الاولى في معناها الاجتماعي. القراءة الثانية. حول بعد النهايات. القراءة الثالثة: حول الرمز والرميز اللغوي في القصص. وانطلاقاً من هذه القراءات تكون لدينا مجموعة من الرؤى المختلفة لنص واحد أو نصوص متعددة صادرة عن الكاتب نفسه، ولكنها تتقارب لتشكيل بنية كلية لا تقتصر على التأسك وإنما تتمحور حول هذا التأسك بصفته محور الدلالات الذي تصدر عنه القصص. إنه نوع من اتقان الصنعة القصصية وغلبة الشعور الواعي على البعد اللاشعوري التي اعتدناها في انتاجنا الابداعي.

القراءة الأولى: المنحى الاجتماعي

لن أداخل هذه القراءة مع القراءات الأخرى، وسأحصرها بالرؤية الاجتماعية بصفاتها جانباً هاماً من جوانب التحليل، وسوف أترك لتعدد القراءات أن تتداخل وتشكل كلية النص في ذهن القارئ.

تمتلك قصص أحمد عودة في « المنعطف » رؤية اجتماعية واضحة، ولكنها تجتريء هذه الرؤية في اطار من الفعل ورد الفعل الداخلي.. إن الصراع الطبقي هنا قائم في داخل الشخصيات وليس قائماً خارجها، لاستناده إلى أسلوب الانعكاس كرد فعل داخلي على ممارسة اجتماعية ظالمة تمارس من قبل الطبقة الأعلى. إن شخصيات القصص تمارس صراعاها في داخلها وليس في خارجها.. ولهذا فإن الصراع الاجتماعي ينقلب ليصبح صراعاً

نفسياً داخلياً قد يصل حد تدمير الذات. لهذا فإن هذا البعد الداخلي التدميري يصبح وسيلة هروبية معوضة لفقدان القدرة الصراعية الخارجية كما يحصل للأب في قصة « بعض الطيور مهاجرة »، إذ يعنى الأب نفسه وهو حي « كل الأحلام الجميلة تبددت، فلماذا يستنكرون أن تعنى نفسك؟ حجتهم أنك ما زلت حياً ترزق، تتنفس وتأكل وتنام. هل المفروض أن تتوارى في قبر مظلم لتكون في عداد الأموات؟ أي معنى لحياة لا سبيل فيها للأمل واحد فيها يتحقق؟ إنك تحس بالموت منذ أمد بعيد بل منذ اللحظة التي ولدتك أمك » ص: ١٠٥.

إن القصة تبني هذا المنحى الصراعى النفسى رغم محاولة تجاوزه من قبل جيل الابن. فالقصة ضمن اللجوء لكسر حدة الصراع المضطرب داخل نفس الشخصية تحاول نقل جبهة الصراع إلى الخارج، ولكنها تظل ضمن داخليتها غير قادرة على جعل هذا الصراع اجتماعياً خالصاً، لأن الابن أيضاً ينكسر إلى الداخل.

« ينتفض واقفاً بالفأس. يهزها في وجه ابنه ويصيح.
- لماذا أنت صامت؟ قل شيئاً.. أي شيء.. العني.. سبني..
فقط قل شيئاً.. أي شيء..

تلقاه بابتسامة باردة. يدفع إليه الفأس صائحاً:

- خذ الفأس وحطم بها رأسي.. فقط لا تسخر مني بصمتك.
أدار وجهه ناحية الأفق البعيد وغمغم.
- ألم تنع نفسك؟ هذا يكفي.
ثم وهو ينتر جسده واقفاً حاملاً الفأس.
- لن اصنع مثلك.. لن انعى نفسي حياً.

يهجم على الأرض يفرغ فيها غيظه.. ص: ١٠٧.

في قصة « الرأي السديد » رؤية ساخرة سوداء ومريرة لمسألة التعالي الطبقي التي تمارسها الفئات البورجوازية.. وهي صورة قصصية مبالغ في التخيل وإنطاق الشخصيات بدائلها.. إنها رؤية واقعية ولكنها نوع من التنكيت المر للخروج بنقد ساخر ومرير لتلك الرؤية الطبقيّة الوقحة. وهذا نوع من التفسير

الداخلي الذي يمكننا من فهم الدخائل والمحركات النفسية في قصة مثل « بعض الطيور مهاجرة »، هنا القصة لا تنظم صراعاً، ولكنها ترسم الصورة المولدة للصراع.. وهي الأفق المقابل لأفق الصراع.

- « إلى هنا ويبقى الحل ناقصاً. ما قصده بالضبط ان نعتني بأهلها، أن نقدم لهم الغذاء والكساء وأنواع الدواء ». برزت أصوات الاحتجاج من الرجال هذه المرة فاستطردت موضحة.

- لن يكلفنا الأمر أكثر مما نفقه على الكلاب.. فهل ستكون هناك قبلاً بلا كلاب؟ ضحكوا طويلاً من سذاجة السؤال. قالوا بصوت واحد:

- بالطبع لا.
قالت العارقة حتى أذنيها بالفراء محتجة.
- ولكن الكلاب تختلف.. قطعاً تختلف.
أردفت سيده بصوت فيه الكثير من الأنوثة المذبوحة:
- اتخلي عن زوجي ولا أستغني عن كلي!
تدرعت ذات القوام الرائع بالصبر حتى انتهين من الكلام.
قالت بلهجة تقريرية بحثة.

- اذن نقوم بتربية أهل القرية تلك كما نربي الكلاب.. هل أنا مخطئة؟ « ص. ٧٥.

وهكذا يتدرج النص القصصي بإشارته لتوضيح منحاها الاجتماعي، أو يبادل الصراع نفسه بالأخبار والتدليل بالوصف حياً وبإثارة الحوار حول الوضع تنبئ عنه كروية لا كتجربة. إن هذا النقص في الدلالة الاجتماعية للقصص يلجئ القاص إلى محورة بعض قصصه حول صراع داخلي يدمر ذات بطله الفقير لانتهاء. قدرة الفعل لديه، ولهذا فإن بطل قصة « الحزن الأبيض » يلجأ إلى ممارسة الجنس ليعوض عن أنكساره النفسي أمام تحدي الصراع.. إنه لا يصنع الحياة، ولكنه يعوض ذاته، ويرأب صدعه النفسي. « التقت عيناه بعينيها في تلك النظرة الطويلة الحاسمة ثم نذت عنها التفاتة إلى فراش مطوي في ركن من الكوخ. انسحب إليه متلاصقين وقد اغلقا وراءها الباب » ص. ٣٤.

إن القاص يبغي الدلالة الاجتماعية لقصصه بانعكاسين هما: الارتداد إلى صراع نفسي يعوض عن الصراع الاجتماعي المنشود، وممارسة الجنس واللجوء إلى العلم كحل هروبي مؤقت لنسيان الواقع. ولكن هذين الحلين يصحان أداتين موظفتين في تأطير الرؤية الاجتماعية بذلك البعد الراض والبعيد عن التأسيس الفعلي لرؤية صراعية صحيحة في إطار موضوعي.

القراءة الثانية: بعد النهايات في القصص:

تتوظف النهايات في قصص هذه المجموعة في تحريك القصص نحو بدايات جديدة.. وتمارس وظيفتها بفتحها أفقاً آخر هو أفق البدء والاقتراب من الحلول. وهي تحاول مد أفقها ضمن عدة أطر ومن خلال أحكام الصنعة التي تخرج النهاية من رحم

البداية. وهكذا فإن النهايات تتشكل إما في إطار مرجعي واقعي، وإما ضمن إطار لغوي تجريدي.

ضمن الاطار الأول، وبالاعتاد على أحداث القصة وتطورها الداخلي النفسي، تحاول القصة باتخاذها البداية مرجعاً للنهاية أن تبرز النهاية وأن تجد لها أساساً مرجعياً هو بنية القصة ووحدها النفسية.. ولهذا تتساقط النهايات لتفتح أفق القصص باتجاه حلول جديدة ومفاهيم جديدة غير تلك المفاهيم السوداء التي تنتشر في بنية القصة.

وهكذا فإن النهاية في قصة « المنعطف » تفتح أفق الصراع وتجسد البداية الجديدة لواقع اجتماعي مطحون ومستلب من خارجه.. فالرجل القوي الذي يضربه الاقطاعي ويستسلم لتعذيبه إثر هزيمة الداخل يشور ويركض نحو الصراع متحدياً من جديد.. إن النهاية هنا هي عصب القصة، وهي - كما يبدو - الهدف الذي يسعى له القاص.. فهو من خلال إنهاء القصة يحل أشكاليته ويبدأها من جديد. إن البطل يعدو فاتحاً بداية صراع جديد.

« نكس كل منهم رأسه مخزي. اطلق الرجل القوي صرخة هائلة وطفق يعفر رأسه بالتراب. زام الرجل من حوله. تسارعوا إلى الجدران السامقة بالعاول. وقف الفتى في طريقهم قائلاً مجرم:

- إنها جهدنا وعرقنا.. لن تهدمها.
استطرد وهو يجمعهم في دائرة محكمة من حوله:
- فلننتظره حتى يعود.
وثب الرجل القوي وصاح ملوحاً بقبضته:
- انتظروا اتم.. أما أنا فلا استطيع الانتظار
وانطلق يعدو قابضاً بين أسنانه على الخيط الرفيع.
« ص: ٤٤ »

ضمن الإطار الثاني ومن خلال التشكيل اللغوي والتلاعب بالكلمات تحل النهاية الإشكالية التي تعانها القصة.. إن اللغة هنا هي التي تحل وليس تفجر الواقع وحيويته الجدالية. لسنا هنا أمام حل من أفق الواقع، بل حل من خارجه لا يمت إليه، ولكنه يلتقط اللغة ليسد بها نقصاً تعاني منه القصة.. لماذا؟ لأن الوقوع فريسة الخيال المجرد هو الذي يقود القاص إلى هذا الحل.. فالقصة تفتقر إلى مراجعها الواقعية، وبالتالي تصبح الإحتلالات مرهونة بالتشكيل اللغوي الذي يمارسه القاص. هذا ما تمكن ملاحظته في قصص « الرجل المتعب وهؤلاء »، « المهزلة »، « المنعطف »، و« بعض ما قاله بعضهم ». في القصة الموسومة بإسم « المهزلة » نلتقي في النهاية بهذا البعد اللغوي الذي تتشكل في إطاره.. فالقاص ينهي قصته بهذه الكلمات « فغرت فمه الدهشة، تساقطت الحجارة من يده محدثة خشخشة طويلة كزخات المطر التي طارده من باب حجرته الحقيرة وحتى المقهى المواجه للمصرف الكبير. » ص: ٢٥. وهذا أيضاً ينطبق على باقي القصص المذكورة، فمن خلال التفجير اللغوي يبنّي عالم القصة. إنه يحتفظ بذلك الخيط الرفيع الذي يربطه بالواقع،

ولكنه بفتقر إلى مراجعته الواقعية كما قلنا.

القراءة الثالثة: الرمز والترميز اللغوي في القصص.

تنبثق حيوية القصص من اللغة بوصفها قدرة باطنة مليئة بالدلالات.. فهي مصدر غني بإيحاءات لا يمكن حصرها، وبالتالي فهي تقبض على الفعل الإشاري المنبثق من دلالات الرموز التي يمكن أستنباطها منها. فالقصة تسير في خطوط متقاطعة ومشتبكة، ومن ضمن هذه العناصر المشتبكة تبرز اللغة لتشكّل قدرة إشارية خاصة تضيء الواقع وتشكّل مرجعاً من مراجعته. تلعب اللغة دورها هنا، خصوصاً في القصص المعبرة عن الإستلاب، بوصفها عامل الإيحاء وعامل إشعال نبض القصة في آن معاً.

إن هذا الاستنباط اللغوي هو الذي يوحي بأن المفردة اللغوية لا تلعب دورها فقط ضمن إطارها الصوري والوحيد الإتجاه، وإنما تعين في صورتها الصوتية والتشكيلية على رؤية الواقع الإستلالي الذي تعيشه شخصيات القصة. في قصة « شر البلية » يمارس أحمد عودة تكتيكه اللغوي في لعبة فنية محايدة.. هنا تتداخل المفردات، وتعكس حالات غير متوقعة من التوتر النفسي. « توجه إلى الباب تسبقه معدته. ضربات الجوع أقوى من الطرق على الباب » ص: ٥٩. وكما نلاحظ فإن التقريرية الإخبارية حالة أعلى.. ترميز على مستوى الجملة وليست تقريرية مباشرة.. إنها تضيء الطابع البشري على اللغة، تؤنسها « ترنح الباب، أوشك أن يسقط بين يديه ». ص: ٥٩. « - تفضل.

خرجت من فمه ورقة صفراء ذابلة أدركها الخريف ».

ص: ٦٠.

ونلاحظ في الفقرات السابقة ذلك البعد الحسي الذي ترسمه الكلمات.. إنها لا تنقل صورة خارجية، ولكنها تؤنس الموضوعات وتتحايل على الواقع، لتفتعل الجو النفسي. وهذا نتيجة غير مباشرة لواقع استلالي يضيء على الإنسان ولغته أيضاً جواً نفسياً مغايراً، فاللغة تصبح إطاراً نفسياً لغة للمشاعر الراحبة المتبدلة في آن خوفاً من رقيب خارجي يرقب حتى التغيرات النفسية ويفسر ما تحت الكلمات، بل ويغير دلالاتها.

- ماذا تشتغل؟

- مدرساً... مدرساً للتاريخ والجغرافيا في مدرسة...

رفع الضابط يده يخرسه.

- كفى.. إذن فأنت تحسن القراءة.

تخيّر إن كان الجواب بنعم سيفيده أم لا هي التي تفيد. تخيل أن هناك ابتسامة تنمو تحت جلد هذا الوجه الجامد. أندفع بلا وعي بطري ولعه بالمطالعة. أمره أن يصمت.

- ثرثار.. هذا يثبت التزامك بأصول المهنة.

أدرك مجدسه أن هذا الكلام يحمل معاني غامضة قد تجلب له الضرر قال بمرح لا يناسب الموقف:

- وشرفك في حدود سير العطاء والبحار والأنهار والتضاريس ووسائل.... ضرب الأرض بقدمه يسكته...

وهكذا فإن « الفعل » اللغوي يتزاح مع الفعل الواقعي فخري صالح

IBN KHALDOUN
PUBLISHING HOUSE



دار ابن خلدون
للطباعة والنشر والتوزيع

بناية ريفيرا سنتر - كورنيش المزرعة - الهاتف: ٣١٢٣٣٥ - ص. ب: ١١٩٣٠٨ - بيروت - لبنان

صدر حديثاً

- ١ - البكاء على الاطلال - رواية غالب هلسا
- ٢ - البدايات - سيرة ذاتية يعقوب زيادين
- ٣ - البصقة د. رفعت السعيد
- ٤ - الموسوعة الاقتصادية مجموعة من الباحثين الاقتصاديين
- ٥ - السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية ترجمة: د. حسن الهموندي عادل عبد المهدي نيكوس بولانتزاس
- ٦ - نفوس هالكة - رواية خريستو كانيف ترجمة: زينب جواد - مراجعة عبد الرزاق الصافي
- ٧ - تطور الحركة العمالية في المغرب احد تفاسكا
- ٨ - ديمقراطية التعليم وبسيكولوجية التربية ترجمة زهير السعداوي
- ٩ - أغاني العمل والعمال في فلسطين علي الخليلي